(٨)

الأمر بعبادة الله وطاعة الرّسول وبالإحسان إلى العباد والنّهى عن الشّرك بأنواعه

الآيات (٣٦ ـ ٤٣)

وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ
ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

بعد أن نهت أولى آيتى القسم السّابق الكريمتين الأزواج عن البغى على زوجاتهم النّاشزات إذا ما أطعنهم جاء فيها التّذييل : ﴿ إنّ اللّه كان عليّاً كبيراً﴾ وبعد أن أمرت أخرى الآيتين الكريمتين الأولياء ، إن خافوا شِقاق بَيْنِ الزّوجين ، بأن يبعثوا حكمًا من أهل الزّوج وحكمًا من أهل الزّوجة صالحين حكيمين ، فلعلّ اللّه سبحانه وتعالى يبارك خطواتهما فيوفّق بين الزّوجين ، جاء فى الآية الكريمة التّذييل : ﴿ إنّ اللّه كان عليمًا خبيرا ﴾ إنّ هذه النّعوت المتعلّقة بالذّات العليّة خير مهيّىء لتحوّل الحديث إلى عبادة اللّه تعالى والأمر بها والنّهى عن الشّرك . وبعد حديث أولى آيات القسم الكريمات عن حقّ اللّه تعالى تحدّثت عن حقوق عباد اللّه تعالى مقدّمةً الأولى فالأولى مراعيةً القرب وكثرة الورود ، ابتداءً بالوالدين وانتهاءً بملك اليمين . وقد تضمّن التّذييل: ﴿إنّ اللّه لا يحبّ من كان مختالاً فخوراً ﴾ صفتين اثنتين الاختيال والفخر ، وكانت الآيتان التّاليتان منسجمتين على التّوالى مع الاختيال والفخر . وفى الآية الكريمة المنسجمة مع الاختيال وصفٌ للمختالين بأنّهم يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل ويكتمون ما آتاهم اللّه تعالى من فضله فاستحقّوا العذاب المهين لكفرهم . وفى الآية الكريمة المنسجمة مع الفخر وصفٌ للفخورين بأنّهم ينفقون أموالهم رياءً وسمعة ولا يؤمنون باللّه تعالى ولا باليوم الآخر ، وحينما ابتعدوا عن اللّه تعالى كان الشّيطان لهم قرينا . وفى أسلوب القرآن الكريم المرقّق للأفئدة يسأل السّياق : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا باللّه واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم اللّه ﴾ لا شىء عليهم ولا ضرّر ، ويقرّر السّياق العدل المطلق للذّات العليّة العليمة بكلّ شىء ، فلا ظلم بحذف حسنة أو إضافة سيّئة ، وعن فضل اللّه تعالى حدّث ولا حرج ، ويكفى فى تأكيد العدل أن يكون المرسلون شهداء يوم القيامة على أممهم ، وأن يشهد على النّاس سمعهم وأبصارهم وجوارحهم وجلودهم .

ولمّا كانت العبادة أوّل ما اهتمّت به أولى آيات القسم فقد كان فى آخر الآيات اهتمامٌ بالصّلاة باعتبارها عمود الدّين ، وكان نهىٌ للسُّكارى أن يقربوا

الصّلاة حتّى يفيقوا ، وللجنب حتّى يغتسلوا . وبشأن المريض والمسافر والّذى جاء من الغائط أو لامس النّساء ولم يجد ماءً ، أو وجده ولم يستطع استعماله لعذر ، من حقّه أن يتيمّم مستعملاً التّراب الطّيّب ، فقد جعل اللّه تعالى لمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ولأمّته الأرض كلّها مسجداً وترابها طهورا . وهكذا يتبيّن مدى اهتمام آخر آيات القسم بالصّلاة باعتبارها عمود الدّين .

الآية رقم (٣٦)

قال تعالى : وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

من المعروف أنّ ثمّة مجموعةً من الأحكام هى من المحكم المتّفق بين العلماء على عدم نسخه فى سائر الشّرائع ومن ذلك آيات الحكمة فى سورة الإسراء[١] والآيات الكريمات من سورة الأنعام[٢] الّتى تتحدّث عمّا حرّم ربّنا جلّ وعلا علينا . واللّطيف أنّ كلّ الآيات الكريمات تبدأ أولاها بأهمّ مسألة وهى توحيد اللّه تعالى ، واللّطيف كذلك أنّ آيات الحكمة من سورة الإسراء تبدأ وتنتهى بمسألة التّوحيد هذه[٣] .

وبشأن هذه الآية الكريمة من سورة النّساء ، وترتيب حبّات عقدها ، نستطيع أن نقول إنّ حبّات العقد تخضع فى ترتيبها لحكمتين جليلتين . أولاهما أهمّيّة المسألة بالقياس إلى المسألة الّتى تليها ، وأخراهما كثرة هذه المسألة بالقياس إلى الّتى تليها .

(١) الآيات ٢٢ ـ ٣٩ .
(٢) الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ .
(٣) انظر مثلاً تفسير القرطبىّ ١٧٥٠ .

إنّ الآية الكريمة تبدأ بالأمر بعبادة اللّه تعالى . وهى بقصد تأكيد المعنى لا تكتفى بهذا الأمر إنّما تُردفه بالنّهى عن الإشراك مع اللّه تعالى سواه . قال تعالى : ﴿ واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئًا ﴾ ويلاحظ أنّ لفظ الجلالة «اللّه» هو الّذى يأتى فى هذه المناسبة ، بينما يجىء فى أوّل آيات السّورة الكريمة القول : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربكم ﴾ والمعروف أنّ لفظ الجلالة « اللّه» يرتبط بالعموم ، فالمطلوب من كلّ النّاس أن يعبدوا اللّه تعالى وحده لا شريك له وألاّ يشركوا به جلّ وعلا شيئًا من ملك مقرّب أو نبىٍّ مرسل أو صالحٍ أو أىّ شىءٍ من الأشياء . والمعروف كذلك أنّ لفظ « ربّ » يقترن به لفت انتباه الخلائق إلى نعم اللّه تعالى على عباده ، وتربيته جلّ وعلا لهم بنعمه وآلائه . وقد جاء دليلاً على هذا المعنى لفت آية سورة النّساء انتباه النّاس إلى نعمة تربيته جلّ وعلا لهم،بأن خلقهم من نفسٍ واحدة ، وخلق منها زوجها ، ونشر منهما رجالاً كثيرًا ونساءً . قال تعالىَ : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ﴾ إن واجب العباد أن يوحّدوه جلّ وعلا وألاّ يشركوا به شيئًا ، كما قال النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم لمعاذ بن جبل : أتدرى ما حقّ اللّه على العباد ؟ قال : اللّه ورسوله أعلم . قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ثمّ أتدرى ما حقّ العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك ؟ ألاّ يعذّبهم(١) .

وحينما يتبيّن حقّ اللّه سبحانه وتعالى على عباده ويتحوّل السّياق فى الآية الكريمة إلى الحديث عن حقوق العباد يتبيّن حقّ الوالدين فى المقام الأوّل. وما أكثر الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن حقّ اللّه تعالى أوّلاً ثمّ تحدّثت عن حقّ الوالدين باعتبارهما ، بإذن اللّه تعالى وبفضله ، السّبب فى وجود الإنسان الّذى تخاطبه الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ والمعنى وأمركم بالوالدين إحسانا(٢) وأوصاكم(٣) وأحسنوا بالوالدين إحسانا(٤)

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٣ . (٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٠ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٤) تفسير القرطبىّ ١٧٥٢ وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٥٠ .

والإحسان إلى الوالدين برّهما والعطف عليهما والخضوع والتّذلّل لهما والقول الكريم لهما وفعل كلّ ما يدخل السّرور على نفسيهما . وقد بيّنت السّنّة النّبويّة المطّهرة أنّ حظّ الوالدة من البرّ أكبر من حظّ الوالد ، فإذا كان للوالد نصيبٌ واحدٌ من البرّ كان للوالدة ثلاثة أنصباء . عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : جاء رجلٌ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : يا رسول اللّه : من أحقّ النّاس بحُسْن صحابتى ؟ قال : أمّك . قال : ثمّ من ؟ قال : ثمّ أمّك . قال : ثمّ من ؟ قال : ثمّ أمّك . قال : ثمّ من ؟ قال : ثمّ أبوك[١] .

ويلى الوالدين فى وجوب الإحسان إليهما ذوو القربى من جهة الأب ومن جهة الأم رجالاً ونساءً . جاء فى الحديث : الصّدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرّحم صدقة وصلة[٢] .

أما وقد نال أولَى النّاس بأخذ الحقوق والأقربون حقوقَهم من والدين وأقربين ، وكانت عناية السّورة الكريمة كبيرةً بالضّعفاء والمحتاجين ، فقد كان ثمّة تحوّلٌ فى الآية الكريمة إلى هؤلاء الضّعفاء والمحتاجين مع تقديم الأولى فى التّقديم وفق الحكمتين السّابقتَين من أهمّيّة وكثرة . وسبق أن عرفنا عناية السّورة الكريمة الكبرى باليتامى ذكورًا وإناثًا ، وها هى ذى الآية الكريمة فى حديثها عن الضّعفاء تبدأ باليتامى أشدّهم ضعفًا ، وبخاصّةٍ إذا كانوا إناثًا . وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة ذكرت المساكين إثر اليتامى وحينما نقارن بين اليتامى والمساكين نتبيّن أنّ اليتامى يتقدّمون المساكين ضعفًا وشدّة حاجة ، لأنّ اليتامى غير قادرين على العمل أصلاً ، وإن كانت الفرصة مواتية ، بينما المساكين يصحّ أن يكونوا قادرين على العمل لو تهيّأت فرصة العمل . ولا ننسى أنّ اليتيم يصحّ أن يكون من ذوى القربى ، وفى هذه الحال له حقّان اثنان وليس حقًّا واحدًا فقط ، وأنّ المسكين يصحّ أن يكون من ذوى القربى كذلك ، وفى هذه الحال له حقّان

(١) صحيح البخارىّ ٨/ ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

اثنان كذلك . جاء فى الحديث : الصّدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرّحم صدقةٌ وصلة[١] قال تعالى : ﴿ واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ والمساكين هم المحاويج من ذوى الحاجات الّذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم ، فأمر اللّه سبحانه بمساعدتهم بما تتمّ به كفايتهم وتزول به ضرورتهم[٢] والمساكين جمع مسكين وهو الّذى قد ركبه ذلّ الفاقة والحاجة فتمسكن لذلك[٣].

وحينما نتأمّل المعنى الّذى تدور حوله مادّة « سكن » نتبيّن أنّه ثبوت الشّىء بعد تحرّك[٤] وأنّه خلاف الاضطراب والحركة[٥] وكأنّ المسكين جعله ذلّ الفاقة ساكنًا فلا حركة ولا اضطراب ولكن سكون ، وهدوء ، ومن هنا قيل إنّ المسكين هو الّذى لا شىء له وهو أبلغ من الفقير[٦] ومن الباب السّكّين ، لأنّه يسكّن حركة المذبوح به ، والسّكينة ، وهو الوقار ، وسُكّان السّفينة ، سمّى لأنّه يسكّنها عن الاضطراب . وهو عربى[٧] .

وبعد أن غطّت الآية الكريمة الفئات الأولى بأن تنال حقّها من الإحسان ، ابتداءً بالوالدين وانتهاءً بالمساكين ، ويلاحظ أنّ فئتين من الفئات الأربع يتأكّد حقّهما فى القرابة وهما الوالدون والقريبون ، وأنّ فئتين يصحّ أن يكون لهما نصيبٌ من القرابة ، وهما اليتامى والمساكين ، ويتأكّد حظّهما من الضّعف وقلّة

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٠ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « سكن » ٢٣٦ .

(٥) معجم مقاييس اللّغة « سكن » ٣/ ٨٨ .

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « سكن » ٢٣٧ .

(٧) معجم مقاييس اللّغة « سكن » ٣/ ٨٨ ومفردات الرّاغب الأصفهانىّ « سكن » ٢٣٧ .

الحيلة ، ويتقدّم اليتامى على المساكين فى هذا الحظّ ، ولهذا تقدّم اليتامى فى الذّكر ، بعد أن غطّت الآية الكريمة الفئات الأربع الأُوَل تحوّلت إلى فئات يغلب عليها القرب المكانىّ . وهذه الفئات الّتى يغلب عليها القرب المكانىّ خمس ، يتمّ ترتيبها فى الآية الكريمة مراعاةً للأَوْلى فالأَوْلى . قال تعالى : ﴿واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القُرْبى واليتامى والمساكين والجار ذى القُرْبى والجار الجُنُب والصّاحب بالجنب وابن السّبيل وما ملكت أيمانكم.إنّ اللّه لا يحبّ من كان مختالاً فخورا﴾ .

أمّا الجار ذو القربى فهو جارك القريب منك فى النّسب وهذا له حقّان ، حقّ الجوار وحقّ النّسب والقرابة .

وأمّا الجار الجنب فهو جارك البعيد منك فى النّسب . وهذا له حقٌّ واحد هو حقّ الجوار .

وأمّا الصّاحب بالجنب فهو صاحبك ومرافقك فى عملك وفى سفرك وما إلى ذلك .

وأمّا ابن السّبيل فهو المسافر المنقطع ، فهو ابن سبيل وصاحب طريق ، وليس صاحب سكن واستقرار . ويصحّ أن يكون غنياً فى بلده .

وأمّا ما ملكت أيماننا فهم الأرقّاء .

ومن المعروف أنّه لا يوجد فى ديار الإسلام اليوم مسترقٌّ واحد ، لأنّ الإسلام شرّع للعتق ولم يشرّع الرّقّ . وإنّما لم يحرّم الإسلام الرّقّ لأنّ خصوم الإسلام كانوا يسترقّون المسلمين ، ولأنّ الاسترقاق قبل الإسلام كان قانونًا عالميًا ، والإسلام وحده هو الّذى رفع الرّقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان . وإذا كان باب الرّقّ اليوم مغلقًا فى ديار الإسلام ، فإنّ خصوم الإسلام هم المسئولون مستقبلاً عن فتحه . إنّهم لو استرقّوا أسرى الإسلام فمن حقّ المسلمين أن يعاملوهم بالمثل ، ولهذه الحكمة كانت الإشارات المتتالية فى القرآن الكريم إلى الرّقيق وإلى وجوب إحسان معاملته والحثّ على

عتقه .

إنّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم عامل أسرى المشركين وفق أربع حالات ، أشار القرآن الكريم إلى حالتين منهما ، وسكت عن الحالتين الأخريين اللّتين بيّنتهما سنّة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم . جاء فى الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم الإشارة إلى أفضل حالتين مع تقديم الحالة الفضلى . وهاتان الحالتان هما المنّ على الأسير دون أخذ الفداء أو المنّ على الأسير مع أخذ الفداء . وهاتان الحالتان أشار إليهما قوله تعالى فى الآية الكريمة : ﴿ فإذا لقيتم الّذين كفروا فَضَرْبَ الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاقَ فإمّا منّا بَعْدُ وإمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها﴾ أمّا الحالتان الأخيرتان فهما الاسترقاق أو القتل . لقد فعل المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم كلاً من هذه الحالات الأربع ، وإنّ من حقّ الإمام أن يختار واحدةً منها ، وأن يعامل أسرى الخصوم بالمثل . إن منّوا على أسرانا منّا ، وإن أخذوا الفداء أخذنا ، وإن استرقوا أسرانا استرققنا ، وإن قتلوا أسرانا قتلنا . ثبت أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جعل يوصى أمّته فى مرض الموت يقول : الصّلاةَ الصّلاةَ وما ملكت أيمانكم . فجعل يردّدها حتّى ما يفيض بها لسانه(١) .

إنّ المسلمين حينما طبّقوا تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ، لم يبق فى ديار الإسلام مسترقٌّ واحد ، بسبب سياسة الإسلام الحكيمة فى معالجة هذه القضيّة العالميّة ونجاحه فى علاجها نجاحه فى علاج سائر الأمور الأخرى كالخمر والرّبا وما إليهما . وإنّما لم يحرّم الإسلام الاسترقاق كما حرّم الخمر والرّبا ، لأنّ خصوم الإسلام كانوا قد اعتادوا استرقاق المسلمين . وبما أنّ باب الاسترقاق مغلقٌ الآن فكأنّ هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ والمراد الأرقّاء الفئة الخامسة فى هذه

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٥ .

المجموعة الثّانية ، كأنّ هذا القول يشير إلى ما مضى حينما كان خصوم الإسلام يسترقّون المسلمين ، ويعاملهم المسلمون بالمثل ، وإلى ما يصحّ أن يحدث مستقبلاً حينما يفتح خصوم الإسلام هذا الباب . وبما أنّ هذه الفئة الخامسة ليست موجودةً فى دنيا الواقع اليوم فكأنّنا أمام فئاتٍ أربع موجودة بالفعل ، وذلك على غرار الفئات الأربع السّابقة الموجودة بالفعل كذلك . .وقد عرفنا أنّ رباطى القرابة وشدّة الحاجة وراء ترتيب العناصر الأربعة السّابقة ، ويصحّ أن يقال هنا إنّ رباطى المكان وشدّة القرب وراء ترتيب هذه العناصر الأربعة اللّاحقة . قال تعالى : ﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب والصّاحب بالجنب وابن السّبيل ﴾ عن ابن عبّاس : والجار ذى القربى ، يعنى الّذى بينك وبينه قرابة[١] والجار الجنب ، يعنى الجار من قومٍ جنب[٢] والّذى ليس بينك وبينه قرابة[٣] والجنب فى كلام العرب البعيد[٤] ومنه قيل للجنب جنب لاعتزاله الصّلاة حتّى يغتسل[٥].

جاء فى الصّحيحين عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه[٦] . وجاء فى الصّحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول اللّه : أىّ الذّنب أعظم ؟ قال : أن تجعل للّه ندًّا وهو خلقك . قلت : ثمّ أىّ ؟ قال : أن تقتل

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٠ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥١ وتفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥١ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥١ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٢ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ ، وتفسير القرطبىّ ١٧٦١ .

ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثمّ أىّ ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك(١) . وروى الإمام أحمد أنّ عائشة رضى اللّه عنها سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت : إنّ لى جارين فإلى أيّهما أُهْدِى ؟ قال : إلى أقربهما منك بابًا . ورواه البخارى(٢).

ومن البيّن تقدّم الجار ذى القربى على الجار الجنب فى الفضل ، ولهذا تقدّم فى الذّكر . وإنّ لفظة الجُنُب رشّحت لمجىء لفظة الجُنُب ، وإنّ لفظة الجار رشّحت لمجىء لفظة الصّاحب ، وإنّ قرب مكان الجار رشّح لذكر الصّاحب بالجنب فى القول : ﴿ والجار ذى القُرْبى والجار الجُنُب والصّاحب بالجنب ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وقتادة : هو الرّفيق فى السّفر . وقال سعيد بن جبير : هو الرّفيق الصّالح . وقال زيد بن أسلم هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السّفر(٣).

إنّ الجار يمتاز بالثّبات والاستقرار ، وإنّ الصاحب بالجنب ، بمعنى رفيقك فى السّفر ، وفى الحضر ، وفى العمل ، وما إلى ذلك ، يتأخّر عن الجار ، وبخاصّة أولو القربى منهم ، ثباتًا واستقرارًا وقربًا . ولهذا تأخّر الصّاحب بالجنب فى الذّكر .

ويقلّ ابن السّبيل عن هؤلاء جميعًا قربًا وحدوثًا . إنّ ابن السّبيل بمعنى صاحب السّبيل وصاحب الطّريق المسافر المنقطع فى سفره ، وهو بطبعه بعيدٌ نَسَبًا ، بعيدٌ فى الأصل مكانًا ، بعيدٌ وجودًا . وإنّ نظرة الإسلام الشّاملة لأصحاب الحقوق أدخلت ابن السّبيل فى رعايتها ، تمامًا كما أدخلت ما ملكت أيماننا . إنّ من الإحسان إلى ابن السّبيل إعطاءه وإرفاقه وهدايته ورشده(٤).

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٥ ، وتفسير القرطبىّ ١٧٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٥ .

(٤) تفسير القرطبىّ ١٧٥٩ .

وبشأن ما ملكت أيماننا ما أكثر الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى تدعو إلى حسن معاملتهم وإكرامهم والتّقرّب إلى اللّه تعالى بعتقهم . قال صلّى اللّه عليه وسلّم : لا يقل أحدكم عبدى وأمَتى بل لِيَقُلْ فتاى وفتاتى[١] وروى مسلم وغيره عن المعرور بن سُوَيد قال : مررنا بأبى ذرّ بالرَّبَذَة[٢] وعليه بُرْد وعلى غلامه مثله فقلنا : يا أبا ذرّ ، لو جمعت بينهما كانت حلّة ، فقال : إنّه كان بينى وبين رجلٍ من إخوانى كلام ، وكانت أمّه أعجميّة فعيّرته بأمّه ، فشكانى إلى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلقيت النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : يا أبا ذرّ ، إنّك امرؤٌ فيك جاهليّة . قلت : يا رسول اللّه ، من سَبَّ الرّجال سبّوا أباه وأمّه . قال : يا أبا ذَرّ ، إنّك امرؤٌ فيك جاهليّة ، هم إخوانكم جعلهم اللّه تحت أيديكم ، فأطعموهم ممّا تأكلون ، وألبسوهم ممّا تَلْبَسون ، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم[٣] .

ومن المعروف أنّ عتق الرّقبة كفّارةٌ لبعض الذّنوب ، ومنها كفّارة اليمين.

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ إنّ اللّه لا يحبّ من كان مختالاً فخورا﴾ أمّا المختال ، فهو ذو الخيلاء ، المعجب بنفسه ، المتكبّر فى أعماقه . وأمّا الفخور فهو المفتخر على عباد اللّه تعالى ، المتعالى على الآخرين ، الفخور على النّاس « يرى أنّه خيرٌ منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند اللّه حقير ، وعند النّاس بغيض »[٤] ومن البيّن أنّ الخيلاء صفة لازمة ، وأنّ الفخر صفةٌ متعدّية .

وحينما نفتّش عن الشّقىّ الّذى يتحقّق فيه سيّىء الصّفات الّتى نهت عنها

(١) تفسير القرطبىّ ١٧٦٠ .

(٢) الرّبذة بالتّحريك : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ، بها مدفن أبى ذرّ الغفارىّ رضى اللّه عنه .

(٣) تفسير القرطبىّ ١٧٥٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٥ .

الآية الكريمة ، وبخاصّةٍ تعاليه واختياله ، فخره وتكبّره على الضّعفاء والفقراء واليتامى والمساكين ومن إليهم ، فإنّا نتبيّن أنّه الّذى يجمع بين الصّفتين الّلتين نصّ عليهما التّذييل ، الاختيال والفخر ، أو الّذى تتحقّق فيه إحدى الصّفتين السّيّئتين ، وما أشدّ قُبْحَ كلٍّ منهما . وهكذا يتبيّن التّوافق بين عجز الآية الكريمة وصدرها ، تذييلها ومتنها .

ومن ألطف ما يمكن أن يقال فى مجال التّرابط بين الآيات الكريمات وتبيين بعض مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى هذا المجال ، أنّ كلاً من الآيتين الكريمتين التّاليتين تبيّن معنى كلٍّ من الّلفظتين فى هذا التّذييل ، وتتمشّى مع كلٍّ منهما على التّوالى . هذا هو التّذييل . قال تعالى : ﴿ إنّ اللّه لا يحبّ من كان مختالاً فخورا ﴾ إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن معنى لفظة « مختالا » وتتمشّى معها فإلى

الآية رقم (٣٧)

قال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

حينما قرنّا بين الاختيال والفخر فى الآية الكريمة السّابقة ، تبيّنّا أنّ الاختيال وإن كان يتجلّى فى المشية المتبخترة مثلاً ، وفى التّعالى والغطرسة ، فإنّه بالمقارنة إلى الفخر أقرب إلى كونه ذاتيًا ، وإلى كون آثاره المباشرة تنعكس على المختال ذاته ، حينما يمشى فى الأرض مرحًا ، وحينما يكاد يطير فى مشيه فرحًا . إنّه يطمع حينما تستخفّه نشوة الطّرب ويضرب الأرض بعقبيه، لو خرقها وبلغ منها أعماقا ، ويحلم ، حينما تستبدّ به نشوة الخيلاء ، وتكاد رءوس أصابع قدميه تلامس الأرض اضطرارًا ، لو أنّه طال أو طار ، فساوى الجبال طولا ، أو نافس السّحاب آفاقا .

انظر إلى هذا المختال المزهوّ بنفسه ، الّذى شغلته ذاته عن الغير ،

وصرفته أنانيّته عن وجوه البرّ والخير ، حينما يبخل بما أكرمه اللّه تعالى به من مال ، وأنعم اللّه تعالى عليه من جاه ، وربّما بما تفضّل اللّه تعالى عليه به من علم . بل ربّما تجاوز درجة البخل إلى درجة الشحّ الّتى هى أشدّ سوءًا من البخل وأكثر قيمًا . إنّ البخل إذا وقف عند منع الإنسان خيره عن الآخرين ، فإنّ الشّحّ يتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة منع الشّحيح الآخرين حقوقهم ، والحرص على الاستحواذ لنفسه على هذه الحقوق عن طريق الحلال أو الحرام . ومن البيّن أنّ الّتورّط فى البخل مظنّة إمكان تورّط البخيل فى الشّحّ ، ومن البيّن كذلك أنّ كلاً من البخل والشّحّ من متعلّقات الاختيال على رفات الأموات وعلى نفوس الأحياء ورقابهم .

والآية الكريمة تذكر مجموعةً من صفات البخيل السّيّئة الّتى يتراكم بعضها على بعض ويتراكب . إنّه يبخل ويمنع خيره أن يصل إلى الآخرين ، بل إنّه ليمنع المال الّذى آتاه اللّه تعالى إيّاه ، وجعله مستخلفًا فيه ، أن يصل إلى مستحقّيه الّذين جعل اللّه سبحانه وتعالى لهم حقاً فى هذا المال ، ولا يكتفى البخيل بهذه الدّرجة من السّوء ، إنّما يتجاوز ذلك إلى منع الآخرين من إيصال خيرهم وبرّهم إلى المستحقّين . وانظر إلى التّعبير القرآنىّ الّذى يبيّن المدى البعيد لاعوجاج نفوس هؤلاء البخلاء ، والتواء فطرهم الّذى ليس عليه من مزيد : ﴿ الّذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل ﴾ إنّ الآية الكريمة يجىء فيها أقوى أسلوبٍ معبّرٍ عن أحطّ دركات البخل وأقبح صفاته . إنّ البخلاء ، استجابةً لنفوسهم الأمّارة بالسّوء الشّرهة النّهمة ، لا يرضون بأقلّ من أمر النّاس ، كلّ النّاس ، بالبخل . ويستوى فى هذه الصّفة من الأمر بالبخل ذكور النّاس وإناثهم ، أغنياؤهم وفقراؤهم ، مؤمنوهم وكافروهم . وهكذا . وليس أمر النّاس بالبخل إلاّ مظهراً من مظاهر الخيلاء .

ولا يقف البخلاء عند أمر النّاس ، كلّ النّاس بالبخل إنّما يتجاوزون

ذلك أيضًا إلى كتمان ما آتاهم اللّه تعالى من فضله ، وإخفاء مال اللّه تعالى الّذى جعلهم جلّ وعلا مستخلفين فيه ، وادّعاء الفقر ، وارتداء لباس المسكنة، وإنكار نعم اللّه تعالى وفضله عليهم ، وجحود خير اللّه تعالى وإحسانه إليهم. وربّما بخل البخيل بما لا يزداد بالإنفاق إلاّ زيادةً ونماءً كالعلم والجاه وما إليهما.

إنّ البخل معناه أن يمنع البخيل الآخرين حقّهم الّذى فرضه اللّه تعالى لهم فى مال الغنىّ البخيل ، وإنّ كتمان البخيل ما آتاه اللّه تعالى من فضله ، وإخفاء ما أعطاه اللّه تعالى من خيره وخزائن جوده ، نوعٌ من السّتر للفضل ، والتغطية للإحسان ، والكفر للنّعمة ، بمعنى ستر النّعمة وتغطيتها . إنّ هذه المعانى المتعلّقة بصدر الآية الكريمة وأوّلها مرشّحة لعجز الآية الكريمة وآخرها أو تذييلها . قال تعالى : ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينا ﴾ ومعنى أعتدنا جعلنا[١] وأعددنا وأحضرنا[٢] .

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : وأىّ داءٍ أدوأ من البخل . وقال: إيّاكم والشّحّ ، فإنّه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا[٣] ، وفى الحديث : إنّ اللّه إذا أنعم نعمةً على عبدٍ أحبّ أن يظهر أثرها عليه . وفى الدّعاء النّبوىّ : واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك قابليها ، وأتمّها علينا[٤] .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تتمشّى مع الاختيال والكِبْر فإنّ الآية الكريمة

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/٥٦ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٤/٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٩٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٤٩٦ .

التّالية تتمشّى مع قلّة الشكر للّه تعالى على النّعم ومع الفخر . فإلى

الآية رقم (٣٨)

قال تعالى : وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

حينما ننظر إلى مجموعة الأوامر فى الآية الكريمة قبل السّابقة نتبيّن أنّ منها ما هو حقٌّ للّه تعالى ، وأنّ منها ما هو حقٌّ فرضه اللّه تعالى لعباده ، ابتداءً بالوالدين وانتهاءً بملك اليمين . وبشأن الاختيال والبخل نستطيع أن نفهم أنّ الاختيال يكون على عباد اللّه تعالى ، وأنّ البخل يكون عن عباد اللّه تعالى الّذين فرض اللّه سبحانه وتعالى لهم حقاً فى أموال الأغنياء . وقد تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن منع المختالين البخلاء أولئك المستحقّين حقوقهم . وبما أنّ الفريق الآخر المكمل لفريق المختالين البخلاء هو فريق الفخورين المانّين المستكثرين ، وبما أنّ للّه سبحانه وتعالى حقًّا لم يتحدّث عنه السّياق بعد ، فقد قامت الآية الكريمة الّتى نحن بصددها بالحديث عن حقّ اللّه تعالى وعن هذا الفريق الفخور الأشر البطر .

لقد بينت الآية الكريمة أنّ هذا الفريق الفخور إنّما ينفق ماله مراءة النّاس، فى غير طاعة اللّه أو فى غير سبيله ، ولكن فى سبيل الشّيطان[1] الرّجيم . إنّه من المعروف أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الصّالحة إلاّ ما كان موافقًا لما أمر به الشّارع الحكيم ، وما كان يراد به وجه اللّه تعالى . وأولئك البخلاء المختالون عصوا اللّه تعالى بحرمان ذوى الحقوق فى أموالهم ما أوجبه اللّه تعالى حقاً لهم فى أموال الأغنياء ، فاستحقّوا يوم القيامة أن يُحْمَى على ما كنزوه من ذهب وفضّة فى نار جهنّم ، وأن تُكْوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . أمّا أولئك الفخورون الّذين أعطوا المستحقّين حقوقهم

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/٥٦ .

ولكنّهم أرادوا الرّياء والسُّمعة وحسن الأحدوثة ، وقد تحقّق لهم ذلك ، فإنّ أعمالهم الصّالحة هذه لا يقبلها اللّه تعالى لأنّ أصحابها لم يريدوا بها وجه اللّه تعالى ، ويجعلها جلّ وعلا هباءً منثورا ، ويحبطها عزّ وجلّ ويبطلها . والمعروف أنّ الرّياء بابٌ من أبواب الشّرك الخفىّ ، فكأنّ أولئك المرائين الفخورين لم يمتثلوا أمر اللّه تعالى فى القول : ﴿ واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا ﴾ وفى خديث الثّلاثة الّذين هم أوّل من تسجر بهم النّار وهم العالم والغازى والمنفق ، المراءون بأعمالهم ، يقول صاحب المال : ما تركت من شىءٍ تحبّ أن ينفق فيه إلاّ أنفقت فى سبيلك ، فيقول اللّه : كذبت ، إنّما أردت أن يقال جوادٌ فقد قيل . أى فقد أخذت جزاءك فى الدّنيا ، وهو الّذى أردت بفعلك . وفى الحديث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال لعدى ابن حاتم : إنّ أباك أراد أمرًا فبلغه . وفى حديث آخر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سئل عن عبد اللّه بن جُدْعان(١) هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : لا . إنّه لم يقل يومًا من الدّهر : ربّ اغفر لى خطيئتى يوم الدّين(٢) .

وتأكيدًا لانسياق الفخورين المرائين وراء هوى النّفس الأمّارة بالسّوء وتسويل الشّيطان الرّجيم ، وتأكيدًا لإشراكهم مع اللّه تعالى سواه وعدم عبادته جلّ وعلا حقّ العباده ، واتّباعهم للشّيطان الرّجيم ، يُرْدَف فى الآية الكريمة وصف الفخورين بالمراءاة بوصفهم بعدم الإيمان باللّه ولا باليوم الآخر . قال تعالى : ﴿ والّذين ينفقون أموالهم رئاء النّاس ولا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر ﴾ .

وحينما لا يؤمن الفخورون المراءون باللّه تعالى رباً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم نبيًا ورسولاً ، وحينما لا يؤمنون باليوم الآخر يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ، الثّواب على الحسنات والعقاب على

(١) عبد اللّه بن جدعان ، بضمّ الجيم : جوادٌ معروف . القاموس .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٦ .

السّيّئات، هم يؤمنون فى المقابل بالشّيطان الرّجيم وبهذه الحياة الأولى الّتى يعتبرونها غياة المنى ونهاية المطاف . إنّ الفخورين المرائين نسوا اللّه تعالى فنسيهم ، وتركوه جلّ وعلا فتركهم لشياطين الجنّ والإنس ولأنفسهم الأمّارة بالسّوء . وها هوذا الشّيطان الرّجيم يصدّق عليهم وعده بإغوائهم وصرفهم عن سبيل اللّه تعالى وجنّته الّتى عرضها السّموات والأرض ، إلى سبيل اللّعين، ونار جهنّم الّتى يقال لها : ﴿ هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾[١] . وها هو ذا الشّيطان الرّجيم يعيث فى الأرض فساداً ، ويُغْوى حزبه ، ويزيّن لهم سبل الغَواية ويسهّلها لهم ، فى هذه الحياة الأولى الّتى يصدّق الغاوون اللّعينَ بشأنها ، وقد زعم لهم أنّها الحياة الأولى وكذلك هى الآخرة ، وينفّذ فى حقّهم المعانى الّتى أشار إليها قوله تعالى[٢] : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعِدْهم . وما يعدهم الشّيطان إلاّ غُرورا ﴾ .

وإنّ هذا الّذى صَفِرَت نفسه من كلّ خير ، وامتلأت بالأسقام والآثام . قد عرفنا قرينه ورفيقه ، وصاحبه وصديقه ، بعد أن تنكّبت نفسه سبيل الحقّ ، وانحرفت عن الصّراط المستقيم . إنّه الشّيطان الرّجيم ، قرين نفس السَّوْء ، وحاديها إلى مهاوى الرّدى ، وقائدها إلى عذاب السّعير ، فساء القرين والرّفيق، وبئس الصّاحب والصّديق .

إنّ هذه المعانى المفهومة من صدر الآية الكريمة نطق بها عجزها أو تذييلها . قال تعالى : ﴿ ومن يكن الشّيطان له قرينًا فساء قرينا ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ الآيات الكريمات تدور حول ثلاثة محاور ، الإيمان باللّه تعالى ، الإيمان باليوم الآخر ، الإنفاق فى سبيل اللّه تعالى . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتنصّ على هذه الأمور الثّلاثة فإلى

---

(١) سورة ق ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء ٦٤ .

الآية رقم (٣٩)

قال تعالى :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

عرفنا أنّ المختالين الفخورين لم يؤمنوا باللّه تعالى ولم يؤمنوا باليوم الآخر ولم ينفقوا ممّا رزقهم اللّه تعالى . وإنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ترضى كلّ عقلٍ بفصوص حكم معانيها ، وتشبع كلّ نفسٍ بجميل تركيب مبانيها ، شأنها فى ذلك شأن سائر القرآن الكريم . إنّ هذه المحاور الثّلاثة الّتى تشير إليها الآية الكريمة تعطف عليها الآية الكريمة القلوب ، وترقّق النّفوس ، وتشرح الصّدور ، فلا يملك من ألقى السّمع وهو شهيد إلاّ أن يمتلىء قلبه من خشية اللّه تعالى ، ونفسه من خوف عذابه جلّ وعلا ، ولا يملك إلاّ أن ينشرح صدره لنور الإسلام ، وإلاّ أن يهتدى بنورٍ من ربّه جلّ وعلا . إنّ من لديه أدنى مُسْكةٍ من عقل ، وأقلّ بقيّةٍ من لُبّ حينما يقف متأمّلاً قوله تعالى : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا باللّه واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم اللّه ﴾ لا يملك إلاّ أن يستجيب لنداء هذا الاستفهام الرّقيق الّذى يشوبه الإنكار ، ولا يملك إلاّ أن يتعاطف قلبه ويتفاعل لبّه مع السّؤال : ﴿ وماذا عليهم ﴾ ؟ ومعناه : وأىّ ضررٍ عليهم ؟ ولا يملك إلاّ أن يعلن بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال : إنّه لا ضرر مطلقًا فى الإيمان والإنفاق ، بل إنّ الخير كلّه والنّفع كلّه فى الإيمان والإنفاق .

وإذا كان الإيمان هنا متعلّقًا بالإيمان باللّه تعالى وباليوم الآخر ، وهذا النّوع من الإيمان هو الّذى نصّت عليه الآية الكريمة السّابقة ، فإنّ الإيمان باللّه تعالى يسبق كلّ إيمان ، وإنّ الإيمان باليوم الآخر يلحق كلّ إيمان ، وبذلك يَعْنى الإيمانُ باللّه تعالى الإيمانَ بكلّ إيمانٍ بينهما . وإذا كان الحديث هنا عن الإنفاق ممّا رزق اللّه سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنّ الإيمان بالإنفاق يعنى الإيمان بكلّ أنواع الإنفاق فى سبيل اللّه تعالى المأمور بها الإنسان . وهكذا يتبيّن أنّ

هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن هذه المحاور الثّلاثة وتشير إليها بإيجاز تذكّرنا بآية الإيمان فى سورة البقرة أو آية البرّ الّتى فيها النّصّ على الإيمان باللّه تعالى وباليوم الآخر وما بينهما ، والإيمان بالإنفاق فى كلّ الصّور الّتى أمر اللّه تعالى بها ورضى عنها . قال تعالى[١] : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قِبَل المَشْرِق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السّبيل والسّائلين وفى الرّقاب وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرين فى البأساء والضّرّاء وحين البأس . أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتّقون ﴾ .

إنّ رب العزّة الغنىّ عن عباده يُنْزِل فى محكم كتابه هذه الآية الكريمة الّتى ترقّ لها القلوب ، وتذرف العيون من أجلها الدّموع . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ لفظ الجلالة يجىء مرّات ثلاثًا . يجىء لفظ الجلالة فى صدر الآية الكريمة مرّتين اثنتين : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا باللّه واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم اللّه ﴾ وأىّ ضرر يمكن أن يلحق بالعباد إذا آمنوا باللّه تعالى خالقهم من العدم ومربّيهم بالنّعم ، وآمنوا باليوم الآخر الّذى يحاسبهم فيه جلّ وعلا بعدله ، ويثيبهم بفضله ، والّذى يبدّل فيه جلّ وعلا سيّئات الّذين تابوا وآمنوا وعملوا عملاً صالحًا حسنات . إنّ هذا هو النّفع كلّ النّفع ، وهو الخير كلّ الخير . وأىّ ضرر يمكن أن يلحق بالعباد إذا أنفقوا فى سبيل اللّه تعالى من مال اللّه تعالى الّذى آتاهم إيّاه ، ورزقهم به ، كى ينالوا على الحسنة الواحدة ثواب عشر حسنات أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أكثر من ذلك . إنّ هذا هو النّفع كلّ النّفع وهو الخير كلّ الخير ، ولكنّه الأسلوب المؤثّر المشوّق ، المرقّق للقلوب والنّفوس ، المهيج لعواطف البرّ والإيمان . وإنّ لفظ الجلالة « اللّه » الّذى يأتى بصريح اللّفظ حتّى فى الموضع الّذى يصحّ ألاّ يأتى فيه يزيد هذه المعانى الخيّرة ثباتًا ورسوخا .

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

وإنّ الشّىء ذاته يقال عن التّذييل : ﴿ وكان اللّه بهم عليما ﴾ إنّ لفظ الجلالة « اللّه » الحبيب إلى كلّ نفسٍ مؤمنةٍ سويّة يجىء فى التّذييل ، وبذلك هو يجىء للمرّة الثّالثة فى الآية الكريمة مع أنّه يصحّ ألاّ يجىء هنا ، ولكنّه اللّفظ الحبيب المبيّن لكلّ إنسانٍ بأنّ ربّه جلّ وعلا أقرب إليه من حبل الوريد .

ومن البيّن أنّ هذا التّذييل : ﴿ وكان اللّه بهم عليما ﴾ مقوٍّ للإيمان فى الآية الكريمة وللإنفاق ممّا رزق اللّه تعالى . إنّ هذا التّذييل يقول لكلّ إنسان : إنّ اللّه سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بنيّة كلّ إنسان وقوله وعمله ، حينما يعلن أنّه يؤمن باللّه وباليوم الآخر وينفق فى سبيل اللّه تعالى. إنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شىءٍ فى الأرض ولا فى السّماء ، وإنّ الإيمان يجب أن يكون صحيحًا ، وإنّ الإنفاق يجب أن يكون فى طاعة اللّه تعالى ، وأن يراد به وجه اللّه تعالى . وإنّ ما نبّه عليه التّذييل فى حقّ صدر الآية الكريمة ينبغى أن يتمثّله الإنسان جيّدًا ، فى حقّ كلّ نيّةٍ وكلّ قولٍ وكلّ عمل . إنّ كلّ ذلك ينبغى أن يتّجه إلى اللّه تعالى وحده لا شريك له ، وبذلك يحقّق الإنسان المعنى الصّحيح لقوله عزّ من قائل : ﴿ واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا ﴾ .

ولمّا كان السّياق قد نصّ من ذى قبل على العذاب المهين للكافرين ، ونصّ بعد ذلك على المؤمنين المنفقين ممّا رزقهم اللّه تعالى ، ولهؤلاء ضمنًا الثّواب العظيم ، فقد كان حديث الآية الكريمة التّالية صراحةً عن هذا الثّواب العظيم والأجر الكبير فإلى

الآية رقم (٤٠)

قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

تشتمل الآية الكريمة على ثلاثة معانٍ يتجلّى فيها على التّوالى العدل

والفضل وفضل الفضل .

أمّا العدل فإنّه يتجلّى فى القول : ﴿ إنّ اللّه لا يظلم مثقال ذرّة ﴾ ومن البيّن أنّنا ابتداءً أمام لفظ الجلالة « اللّه » الّذى جاء فى الآية الكريمة السّابقة مرّات ثلاثا . والمعروف أنّ لفظ الجلالة : « اللّه » يفيد العموم ، وهو هنا يأتى منبّهًا إلى شمول عدله جلّ وعلا جميع النّاس ، وإلى شمول عدله جلّ وعلا كلاًّ من الحسنات والسّيّئات .

والجزئية الكريمة تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يظلم عباده فى مجال الحسنات والسّيّئات على السّواء قدر ثقل الذّرّة فى الوزن(١) ، والذّرّة : أصغر نملة(٢) وعن ابن عبّاس : مثقال ذرّة : رأس نملة حمراء(٣) ومن العلماء من ذهب إلى أنّ هذه النّملة الحمراء أو الدّودة الحمراء ليس لها وزن(٤) فكيف برأسها . والمقصود بطبيعة الحال إثبات العدل فى أكمل صوره ونفى الظّلم فى أدنى صوره . وقد قال تعالى(٥) : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلم نفسٌ شيئًا . وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين ﴾ إنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يظلم النّاس قدر ثقل أصغر نملة ، بمعنى أنّه جلّ وعلا لا يظلم النّاس شيئًا بحذف حسنة أو إضافة سيّئة ، ولكنّه العدل الكامل والقِسْط التّام .

وأمّا الفضل فإنّه يتجلّى فى القول : ﴿ وإن تك حسنةً يضاعفها ﴾ وأوّل ما يلاحظ هو أنّ ثمّة سكوتًا عن السّيّئات وتجاوزًا لها وحديثًا عن الحسنات

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٧ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٧ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٧ .

(٥) سورة الأنبياء ٤٧ .

وإشادةً بها . ومعنى الجزئيّة الكريمة : وإن تك الذّرّةُ حسنةً يضاعفها جلّ وعلا أضعافًا كثيرة . وقد فطن الطّبرىّ رحمه اللّه تعالى رحمةً واسعة لبلاغة التّعبير بجملة « يضاعفها » والعدول عن جملة يضعّفها يقول[١] : « وأمّا قوله يضاعفها فإنّه جاء بالألف ولم يقل يضعّفها لأنّه أريد به فى قول بعض أهل العربيّة : يضاعفها أضعافًا كثيرة . ولو أريد به فى قوله يضعّف ذلك ضعفين لقيل : يضعّفها بالتّشديد » .

وبشأن مضاعفة الحسنة نتذكّر قوله تعالى[٢] : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسّيّئة فلا يُجْزَى إلاّ مِثْلَها وهم لا يُظْلَمون ﴾ كما نتذكّر قوله تعالى[٣] : ﴿ مَثَلُ الّذين يُنْفقون أموالهم فى سبيل اللّه كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلةٍ مائة حبّة . واللّه يضاعف لمن يشاء . واللّه واسعٌ عليم ﴾ .

وأمّا فضل الفضل فإنّه يتجلّى فى القول : ﴿ ويؤت من لدنه أجرًا عظيما ﴾ والمعنى أنّ الذّرّة إن تك حسنةً يضاعفها جلّ وعلا أضعافًا مضاعفةً ، ويؤت جلّ وعلا من لدنه وهبةً منه تعالى من يشاء أجرًا عظيمًا ، فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبشأن السّيّئات المسكوت عنها فى الآية الكريمة نتذكر قوله تعالى[٤] : ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات ﴾ ونتذكّر فضل اللّه تعالى على عباد الرّحمن الّذين يبدّل اللّه سبحانه وتعالى سيّئاتهم حسنات . وقد قال تعالى[٥] : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات .

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/٥٨ .

(٢) سورة الأنعام ١٦٠ .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

(٤) سورة هود ١١٤ .

(٥) سورة الفرقان ٧٠ .

وكان اللّه غفوراً رحيما ﴾ .

إنّ نفى أدنى الظّلم عدل ، وإنّ مضاعفة ثواب الحسنة الواحدة أضعافًا كثيرة فضل ، وإنّ إيتاء اللّه تعالى عاملى الصّالحات من لدنه جلّ وعلا أجرًا عظيمًا فضلٌ فوق فضل : ﴿ واللّه ذو الفضل العظيم ﴾[١] .

والأجر العظيم : الجنّة ، نسأل اللّه الجنّة[٢] .

وبعد الحديث عن حساب يوم القيامة وثواب المؤمنين ودخول الجنّة ، وعذاب الكافرين ودخول النّار ، يتحوّل الحديث إلى شهادة النّبيّين على أممهم بالإيمان وعمل الحسنات أو بالكفر وعمل السّيّئات ، ولا يخفى دور الشّهود العدول فى تأكيد العدل وتثبيت دعائمه ، وفى نفى الظّلم وتقليم أظافره ، وفى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه ، وإلى ذلك أشارت

الآية رقم (٤١)

قال تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾

من المعروف أنّ كيف يُسأل بها عن الحال . والآية الكريمة تريد أن تهوّل من شأن يوم القيامة وتنبّه إلى شدّة أمره فتسأل عن حال الخلائق فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، وموقفهم العصيب ، وكربهم الشّديد ، وبخاصّة الكافرون . ويجمل بنا أن نشير إلى ما اقترن بالآيتين الكريمتين من موقف خاصّ للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلم ، وفرط تأثّره صلّى اللّه عليه وسلّم لسماعه أولاهما على جهة الخصوص . قال البخارى[٣] : حدّثنا محمّد بن

(١) سورة الحديد ٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٨ ، وتفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٩ ، وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٦٥ .

(٣) صحيح البخارىّ ٦/ ٥٧ .

يوسف ، حدّثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : اقرأ علىّ . فقلت يا رسول اللّه أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم . إنّى أحبّ أن أسمعه من غيرى . فقرأت سورة النّساء حتّى أتيت إلى هذه الآية : فكيف إذا جئنا من كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . فقال : حسبك الآن . فإذا عيناه تذرفان . ورواه مسلم وأحمد وغيرهما(١) . وقال ابن أبى حاتم . . . حدّثنا يونس بن محمّد بن فضالة الأنصارىّ عن أبيه قال : وكان أبى ممّن صحب النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم أتاهم فى بنى ظفر ، فجلس على الصّخرة الّتى فى بنى ظفر اليوم ، ومعه ابن مسعود ومعاذ ابن جبل وناسٌ من أصحابه ، فأمر النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم قارئًا فقرأ حتّى أتى على هذه الآية : فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، فبكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتّى ضرب بلحيته وجنبيه فقال : يا ربّ ، هذا شهدت على من أنا بين أظهرهم فكيف بمن لم أره(٢) . وعن عبد اللّه بن مسعود : فكيف إذا جئنا من كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : شهيدًا عليهم ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتنى كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت على كلّ شىءٍ شهيد(٣) .

إنّ هذه الآية الكريمة الأولى تسأل على سبيل التّهويل والتّعظيم والتفخيم: فكيف حال الخلائق ، وبخاصّةٍ الكافرون منهم ، إذا جئنا فى يوم القيامة من كلّ أمّة بشهيد . هكذا فى صيغة المبالغة ، وليس : فكيف إذا جئنا بشاهد . والشّهيد هو الشّاهد الّذى تتوافر فيه كلّ الشّروط المؤدّية إلى قبول

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٨ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٩ . وتفسير ابن كثير ١/ ٤٩٩ .

شهادته . والمراد بالشّهيد الرّسول الّذى أرسله اللّه تعالى إلى أمّةٍ من الأمم وقد قال تعالى[١] : ﴿ وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ .

وانظر إلى جملة « جئنا » الّتى تُستَعْمل فى الآية الكريمة مرّتين اثنتين والّتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على القرب . والمراد هنا أنّ ربّ العزّة يجىء كلّ أمّة برسولها ، ويجىء الأمّة الإسلاميّة برسولها ، محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، كى يشهد كلّ رسولٍ على أمّته بأنّه بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقومه النّاصح الأمين .

ما أعظم ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، وما أشدّ أهواله على الأمم إلاّ من رحم ربّك ، وما أغزر المعانىّ الّتى توحى بها الآية الكريمة وما أعمقها . وها هو ذا المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم الّذى آتاه اللّه تعالى جوامع الكلم ، يمتلىء قلبه خوفًا ، ونفسه خشيةً ، وهو الرّءوف الرّحيم ، لتمثّل معانى الآية الكريمة ، وأهدافها العميقة ، ومراميها البعيدة ، فتذرف عيناه الدّمع ، ويقول لعبد اللّه بن مسعود رضى اللّه تعالى عنه الّذى كان يقرأ القرآن بأمرٍ منه صلّى اللّه عليه وسلّم ويسمعه عليه الصّلاة والسّلام والمؤمنون : حسبك الآن . والمعنى يكفى ما قرأت فاسكت الآن . إنّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم لفرط تأثّره لم يستطع أن يسمع من عبد اللّه بن مسعود الآية الكريمة التّالية المترتّبة على هذه الآية الكريمة الأولى فطلب من ابن مسعود أن يوقف التّلاوة وقال : يا ربّ شهدت على من أنا بين أظهرهم من مهاجرين وأنصار ومؤمنين وغيرهم فكيف أشهد على من لم أره من أمّتى .

والمعروف أنّ رسالة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم تضمّنها القرآن الكريم وسنّة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكأنّه عليه الصّلاة والسّلام حىٌّ بين ظهرانَينا . إنّ فرط إشفاقه صلّى اللّه عليه وسلّم على أمّته هو الباعث له عليه الصّلاة والسّلام على قول ما قال . وإنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن الكرب

(١) سورة فاطر ٢٤ .

الشّديد الّذى سيكون فيه الّذين كفروا وعصوا رسول اللّه تعالى إليهم فإلى

الآية رقم (٤٢)

قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

يوم القيامة الّذى يقوم فيه النّاس لربّ العالمين حينما يحين ، ويحمل المؤمن فيه كتابه بيمينه ، ويحمل الكافر فيه كتابه بشماله ، يودّ الّذين كفروا وعصوا الرّسول ، ويتمنّى الّذين لم يؤمنوا باللّه تعالى ربًّا ، وبمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم رسولاً ، وبالإسلام دينًا ﴿ لو تسوّى بهم الأرض ﴾ .

فما معنى : ﴿ لو تُسَوّى بهم الأرض ﴾ ؟ من البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة تُظْهر المتمنّين أرفع مستوىً من الأرض ، فالأرض هى الّتى تسوّى بهم ، وبالتّالى لا يصحّ أن يفهم من الجزئيّة الكريمة المعنى الّذى يفهم من القول : يودّ الكافرون لو يسوّون بالأرض ، وهو القول الّذى كان يصحّ أن يأتى على ألسنة الكافرين والّذى لم يأت على ألستهم ، فدلّ على أنّ هذا المعنى ليس هو المراد وليس الّذى تفيده الجزئيّة الكريمة . فبقى إذن أن يكون معنى القول : ﴿ لو تسوّى بهم الأرض ﴾ يودّ الّذين كفروا وعصوا الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم لو أنّ الأرض انشقّت وبلعتهم[١] وسُوِّيت عليهم[٢] الأرض ، ولو أنّ اللّه سبحانه وتعالى سوّاهم والأرض فصاروا ترابًا مثلها بتصييره إيّاهم كما يفعل ذلك بمن ذكر أنّه يفعله به من البهائم[٣] وقد قال تعالى[٤] : ﴿ إنّا أنذرناكم

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٩ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٦٧ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٠ .

(٤) سورة النّبأ ٤٠ .

عذابًا قريبًا يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ ولا يكتمون اللّه حديثا ﴾ أنّ هؤلاء الكافرين لا يستطيعون أن يكتموا اللّه سبحانه وتعالى حديثًا ، ولا يستطيعون أن يخفوا فعلاً ، أو يستروا نيّة ، لأنّهم إن كذبوا فى أقوالهم ، وزعموا أنّهم صادقون ، وحلفوا باللّه العظيم على ذلك ، فإنّ جوارحهم تشهد عليهم بالحقّ ، وجلودهم تنطق ضدّهم بالصّدق ، وقد قال تعالى[١] : ﴿ يوم يبعثهم اللّه جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسَبون أنّهم على شىء ألا إنّهم هم الكاذبون ﴾ ، وقال تعالى[٢] : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ ، وقال تعالى[٣] : ﴿ ويوم يُحْشَر أعداء اللّه إلى النّار فهم يوزَعون . حتّى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّه الّذى أنطق كلّ شىء وهو خلقكم أوّل مرّة وإليه تُرْجَعون . وما كنتم تَسْتَترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنّ اللّه لا يعلم كثيرًا ممّا تعملون . وذلكم ظنّكم الّذى ظننتم بربّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنّار مثوىً لهم وإن يَستعتِبوا فما هم من المُعْتَبين ﴾ ومعنى القول : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ وإن يطلبوا العُتْبى أى الرّضا فما هم من المرضيّين[٤] .

ولمّا كانت عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له أهمّ ما أمرت به آيات هذا القسْم وكانت الصّلاة عماد الدّين فقد كانت آخر آيات هذا القسم ذات علاقةٍ بالصّلاة فإلى

---

(١) سورة المجادلة ١٨ .

(٢) سورة يس ٦٥ .

(٣) سورة فصّلت ١٩ ـ ٢٤ .

(٤) الجلالين .

الآية رقم (٤٣)

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

سبب النّزول :

روى الإمام أحمد أنّ عمر بن الخطّاب رضى اللّه عنه قال : اللّهمّ بيّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية التى فى البقرة(١) : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللّهمّ بيّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية الّتى فى النّساء : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا أقام الصّلاة نادى ألاّ يقربنّ الصّلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللّهمّ بيّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآيتان اللّتان فى المائدة(٢) : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشّيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون . إنّما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوةَ والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر اللّه وعن الصّلاة فهل أنتم منتهون ﴾ ؟ فدعى عمر فقرئتا عليه ، فلمّا بلغ : فهل أنتم منتهون ؟ قال عمر : انتهينا انتهينا . وهكذا رواه أبو داود والتّرمذىّ والنّسائى(٣) .

---

(١) الآية ٢١٩ .

(٢) الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٥ و ٥٠٠ وقد أكملنا الآيات . وتفسير القرطبىّ ١٧٧٠ وأسباب النّزول للواحدى ١٨٤ .

وبهذا يتبيّن أنّ آية سورة النّساء الّتى نحن بصددها ترتبط بالمرحلة الثّانية من مراحل تحريم الخمر الثّلاث .

وروى الإمام مسلم وأهل السّنن إلاّ ابن ماجة أنّ رجلاً من الأنصار أو المهاجرين صنع طعامًا فدعا أناسًا من المهاجرين وأناسًا من الأنصار فأكلوا وشربوا حتّى سكروا وافتخروا ، فرفع رجلٌ لَحْيَ[١] بعيرٍ فغرز بها أنف سعد ابن أبى وقّاص ، فكان سعد مغروز الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر ، وحضرت صلاة المغرب ، فخلط الإمام فى قراءة سورة الكافرون فنزلت الآية الكريمة[٢] .

مرّ تحريم الخمر كما هو معروفٌ بثلاث مراحل . المرحلة الأولى الّتى سأل فيها الصّحابة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم عن الخمر والميسر وكان جواب آية سورة البقرة بأنّ فى الخمر والميسر إثمًا كبيرًا ومنافع للنّاس . والمعنى أنّ فى الخمر والميسر إثماً كبيراً للناس ومنافع لهم . وهذا المفهوم بأنّ الإثم أكبر من النّفع نطقت به الآية الكريمة وصرّحت . وإنّ أصحاب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وتلاميذه النُجباء البررة ، ما كان ليخفى على كثيرٍ منهم أذى الخمر ونظرة الازدراء من الشّارع الحكيم إليها . وينبغى أن يكون بعض هؤلاء قد امتنع من شربها أو تخفّف .

ثمّ كانت المرحلة الثّانية من التّحريم فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة النّساء ، وفيها نَهْيٌ الّذين آمنوا عن الاقتراب من الصّلاة وهم سكارى حتّى يعلموا ما يقولونّ . وحينما ننظر إلى ضيق الوقت بين المغرب والعشاء ، وبين الظّهر والعصر ، إضافةً إلى كون هذا الوقت وقت القيلولة والرّاحة فى الظهيرة ، وإلى كون الوقت بين صلاة الفجر وصلاة الظّهر وقت العمل والكدح ، نستطيع أن نفهم أنّ الأوقات الّتى يصحّ فيها شرب الخمر

(١) اللّحيِ بفتح اللّام : عظم الحنك الّذى عليه الأسنان .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٠ ، وتفسير الطبرىّ ٥/ ٦١ ، وتفسير القرطبىّ ١٧٧٠ .

محدودة ، وتكاد تنحصر ليلاً بعد صلاة العشاء . وحينما نعلم إقبال الصّحابة رضوان اللّه تعالى عليهم على اللّه تعالى وقيام اللّيل ندرك انحصار وقت شرب الخمر فى أضيق وقت . وإنّ ذلك الّذى يشرب الخمر فى ذلك الوقت الضّيق قد تبيّن له إثم الخمر الكبير بالقياس إلى نفعها المحدود . وكلّ ذلك مظنّة انصراف الكثيرين عن شرب الخمر واستعدادهم لقبول الحكم بتحريم الخمر فى المرحلة الثّالثة والأخيرة الّتى بيّنتها آيتا سورة المائدة .

والآية الكريمة تنهى الّذين آمنوا عن مجرّد الاقتراب من الصّلاة وهم سكارى ، وتعيّن الحال الّتي يصحّ معها الاقتراب من الصّلاة وأداؤها ، وهى حال الإفاقة من السّكر ، وعلم من كان مخموراً ما يقول .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تعطى بطريقٍ غير مباشرٍ أدقّ تعريف للسّكران وهو الّذى لا يعلم ما يقول ، وتعطى بطريقٍ مباشر أدقّ معنىً للإفاقة وهو العلم بما يقال : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون ﴾ .

وكما تنهى الآية الكريمة الّذين آمنوا عن الاقتراب من الصّلاة وهم سكارى تنهاهم عن الاقتراب منها وهم جنب ، بإيلاج أو إنزال[١] .

و إنما قيل للجنب إنّه جنب لاجتنابه الصّلاة واعتزاله إيّاها حتى يغتسل[٢] وسمّيت الجنابة بذلك لكونها سببًا لتجنّب الصّلاة فى حكم الشّرع[٣] وتستثنى الآية الكريمة عابرى السّبيل : ﴿ ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيلٍ حتّى تغتسلوا ﴾ عن علىٍّ رضى اللّه عنه : ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيلٍ قال : إلاّ أن تكونوا مسافرين فلا تجدوا الماء فتيمّموا[٤] ويرى هذا الرّأى ابن

(١) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانى « جنب » ١٠٠ وتفسير القرطبىّ ١٧٧٥ .

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٥/ ٥٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « جنب » ١٠٠ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٢ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٠١ .

عبّاس[١] ، وعن ابن عبّاسٍ أيضًا : ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيلٍ ، قال : لا تقرب المسجد إلاّ أن يكون طريقك فيه فتمّر مرّاً ولا تجلس[٢] ، وقال الطّبرىّ[٣] : « حدّثنى المثنّى قال حدّثنا أبو صالح قال حدّثنى اللّيث قال حدّثنى يزيد بن أبى حبيب عن قول اللّه : ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيلٍ ، أنّ رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممرّاً إلاّ فى المسجد ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى : ﴿ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيل﴾ ، وقد علّق ابن كثير[٤] على هذا القول لابن جرير بقوله : « ويشهد لصحّة ما قاله يزيد بن أبى حبيب رحمه اللّه ما ثبت فى صحيح البخارىّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : سدّوا كلّ خَوْخة[٥] فى المسجد إلاّ خوخة أبى بكر . وهذا قاله فى آخر حياته صلّى اللّه عليه وسلّم ، علمًا منه أنّ أبا بكر رضى اللّه عنه سيلى الأمر بعده ، ويحتاج إلى الدّخول فى المسجد كثيرًا للأمور المهمّة فيما يصحّ للمسلمين ، فأمر بسدّ الأبواب الشّارعة إلى المسجد إلاّ بابه رضى اللّه عنه » ويقول[٦] : « وعن هذه الآية احتجّ كثيرٌ من الأئمّة على أنّه يحرم على الجنب المكث فى المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنّفساء أيضًا فى معناه ، إلاّ أنّ بعضهم قال : يحرم مرورهما لاحتمال التّلويث . ومنهم من قال : إن أمنت كلّ واحدةٍ منهما التّلويث فى حال المرور جاز لهما المرور وإلاّ فلا . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٢ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٣ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٠١ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠١ .

(٥) الخَوْخة بفتح الخاء : كوّة تؤدّى الضّوء إلى البيت والباب الصّغير فى الباب الكبير .

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠١ .

وسلّم ناوليني الخُمْرة[١] من المسجد . فقلت : إنّى حائض . فقال : إنّ حيضتك ليست فى يدك . وله عن أبى هريرة مثله . وفيه دلالةٌ على جواز مرور الحائض فى المسجد والنّفساء فى معناها . واللّه أعلم » .

وقد ذهب الطّبرىّ إلى أنّ عابر السّبيل مجتاز المسجد وليس المسافر يقول[٢] : « قال أبو جعفر : وأولى القولين بالتّأويل لذلك تأويل من تأوّله : ولا جنبًا إلا عابرى سبيل ، إلاّ مجتازى طريقٍ فيه . وذلك أنّه قد بيّن حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب فى قوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيدًا طيّبا ﴾ فكان معلومٌ بذلك أنّ قوله ﴿ ولا جنبًا إلاّ عابرى سبيل حتّى تغتسلوا ﴾ لو كان معنيّاً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره فى قوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ معنىً مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك . وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : يا أيّها الّذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصّلاة مصلّين فيها وأنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتّى تغتسلوا إلاّ عابرى سبيل .

والعابر السّبيل المجتازه مراً وقطعًا . يقال منه : عبرت هذا الطّريق فأنا أعبره عبرًا وعبورًا . ومنه قيل : عبر فلانٌ النّهر إذا قطعه وجازه . ومنه قيل للنّاقة القويّة على الأسفار هى عبر أسفار لقوّتها على الأسفار » .

وممّا يؤيّد رأى الطّبرىّ فى كون المراد بعابر السّبيل مجتاز المسجد أنّ القرآن استعمل فى حقّ المسافر المنقطع « ابن السّبيل » دليلاً على كون هذا المسافر صاحبًا للسّبيل فكأنّه ابنٌ للطّريق . أمّا عابر السّبيل فإنّه السّريع العبور والمرور وذلك من متعلّقات عبور المساجد .

(١) الخُمْرة بضمّ الخاء وسكون الميم : حصيرة أو سَجّادة تُنْسَج من سَعَف النّخل وتُرْمَلُ بالخيوط .

(٢) تفسير الطّبرى ٥/ ٦٤ .

وقد فسّر الطّبرىّ القول : ﴿ لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى ﴾ بالقول : « لا تقربوا المساجد للصّلاة مصلّين فيها » ونحن نرى أنّ الصّلاة هنا على بابها سواءٌ كانت فى المسجد أو فى غير المسجد . إنّ على الّذين آمنوا ألاّ يقربوا الصّلاة وهم سكارى ، ومن باب الأولى حينما تكون الصّلاة فى المسجد . ووراء ذلك نحن نتبيّن فى ذكر الصّلاة استدعاءً لطيفًا ونداءً خفيًا للمسجد الّذى يُنْهَى الجنب عن عبوره ، ومع ذلك فإنّ لفظ المسجد لم يأت هنا بصريح اللّفظ، وبناءً على ذلك يكون لفظ المسجد مفهومًا وليس منطوقًا به فى حقّ المصلّى وفى حقّ عابر السّبيل معًا .

وقد علّق ابن كثير[١] على قول الطّبرىّ السّابق : « وهذا الّذى نصره هو قول الجمهور ، وهو الظّاهر من الآية . وكأنّه تعالى نهى عن تعاطى الصّلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها ، وعن الدّخول إلى محلّها على هيئة ناقصة هى الجنابة المباعدة للصّلاة ولمحلّها أيضًا . واللّه أعلم » .

« وقوله : حتّى تغتسلوا ، دليلٌ لما ذهب إليه الأئمّة الثّلاثة أبو حنيفة ومالك والشّافعىّ أنّه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتّى يغتسل أو يتيمّم إن عدم الماء أو لم يقدر على استعماله بطريقة . وذهب الإمام أحمد إلى أنّه متى توضّأ الجنب جاز له المكث فى المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور فى سننه بسندٍ صحيح : أنّ الصّحابة كانوا يفعلون ذلك . قال سعيد بن منصور فى سننه : حدّثنا عبد العزيز بن محمد هو الدّراوردى عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال : رأيت رجالاً من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يجلسون فى المسجد وهم مجنبون إذا توضئوا وضوء الصّلاة . وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرط مسلم . واللّه أعلم » .

وتتحدّث الآية الكريمة بعد ذلك عن أربع حالات يصحّ معها التّيمّم فى حال عدم وجود الماء وهى المرض والسّفر والحدث الأصغر والحدث الأكبر أو

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٢ .

الجماع . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّبًا ﴾ وبشأن الحالين الأوّلين نستطيع أن نتبيّن أن المرض لا يد للإنسان فيه بخلاف السّفر الّذى يصحّ أن يكون له يدٌ فيه لذلك جاء التّعبير عن المسافرين بأنّهم الّذين على سفر، ولا يخفى ما لحرف الجرّ « على » من قدرةٍ على إفادة الاستعلاء والتّحكّم فى السّفر . وبشأن الحالين الأخيرين نستطيع أن نتبيّن أنّ الإنسان أكثر مجيئًا من الغائط ومن البَراز من ملامسته النّساء ، هذا إلى أنّ الإنسان لا يستطيع أن يصبر عن الذّهاب إلى الغائط بينما قد يصبر عن إتيان النّساء . وهكذا يتبيّن أنّ الحالة الأولى من الحالات الأربع تقدّمت لحظّها الموفور من الاضطرار ومن المشقّة ، يلى ذلك السّفر فقد يكون المسافر مختاراً وقد يكون السّفر غير شاقّ ، كما يتبيّن أنّ الإنسان مضطرٌّ وبكثرة لأن يجىء إلى الغائط ، ويقلّ كلٌّ منهما فى حقّ ملامسة النّساء أو جماعهنّ .

فما معنى القول : ﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ ؟ يقول ابن كثير[١] : « أمّا المرض المبيح للتّيمّم فهو الّذى يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء . ومن العلماء من جوّز التّيمّم بمجرّد المرض لعموم الآية » .

وانظر إلى الكناية اللّطيفة : ﴿ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ﴾ فى التّعبير عن قضاء الحاجة أو الحدث الأصغر . إنّ الغائط عبارةٌ عن المطمئنّ من الأرض[٢] وما انخفض منها ، والجمع الغيطان والأغواط ، وبه سمّي غوطة دمشق . وكانت العرب تقصد هذا الصّنف من المواضع لقضاء حاجتها تستّرًا عن أعين النّاس ، ثمّ سمّى الحدث الخارج من الإنسان غائطًا للمقارنة . وغاط فى الأرض يغوط إذا غاب[٣] وغار[٤] وجعل الغائط كنايةً عن قضاء حاجة

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٢ . (٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٢ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١٧٩٠ وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٠٥ ومعجم مقاييس اللّغة « غوط » ٤/ ٤٠٢ .

(٤) معجم مقاييس اللّغة « غوط » ٤/ ٤٠٢

الإنسان لأنّ العرب كانت تختار قضاء حاجتها فى الغيطان ، فكثر ذلك منها حتّى غلب عليهم ذلك ، فقيل لكلّ من قضى حاجته الّتى كانت تقضى فى الغيطان حيث قضاها من الأرض متغوّط . وجاء فلان من الغائط يعنى به قضى حاجته الّتى كانت تقضى فى الغائط من الأرض[١] .

وقد كانت هذه الكناية اللّطيفة عن الحدث الأصغر موطّئةً للكناية الأخرى اللّطيفة عن الحدث الأكبر وذلك فى القول : « أو لامستم النّساء » عن ابن عبّاس قال : اللّمس والمسّ والمباشرة الجماع ولكنّ اللّه يكنى بما شاء[٢] ، وقال آخرون : عنى اللّه بذلك كلّ لمس بيدٍ كان أو بغيرها من أعضاء جسد الإنسان ، وأوجبوا الوضوء على من مسّ بشيءٍ من جسده شيئًا من جسدها مفضيًا إليه[٣] .

« قال أبو جعفر : وأولى القولين فى ذلك بالصّواب قول من قال : عنى اللّه بقوله : أو لامستم النّساء ، الجماع دون غيره من معانى اللّمس ، لصحّة الخبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه قبّل بعض نسائه ثمّ صلّى ولم يتوضّأ . . . عن عروة عن عائشة قالت : كان النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم يتوضّأ ثمّ يقبّل ثمّ يصلّى ولا يتوضّأ . . . عن عروة عن عائشة أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم قبّل بعض نسائه ثمّ خرج إلى الصّلاة ولم يتوضّأ . قلت : من هى إلاّ أنت فضحكت[٤] ، ويقول ابن كثير[٥] : « وهكذا رواه أبو داود والتّرمذىّ وابن ماجة . . . وقال التّرمذىّ : سمعت البخارىّ يضعّف هذا الحديث . . . . وأبلغ من ذلك ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث

(١) تفسير الطّبرى ٥/ ٦٥ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٦ وانظر ٦٥ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٠٥ وتفسير القرطبىّ ١٧٩٣ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٦ .

(٤) تفسير الطّبرى ٥/ ٦٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٣ .

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . وهذا نصٌّ فى كونه عروة بن الزّبير ، ويشهد له قوله : من هى إلاّ أنت فضحكت » وبهذا يكون المراد بعروة ابنَ الزّبير وليس عروة المزنىّ الّذى ينسب إليه الحديث هو الآخر(١) والّذى لم يسمع منه حبيب بن أبى ثابت أحد رجال الحديث ، ولهذا ضعّف البخارىّ الحديث(٢) .

وعن أمّ سلمة أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقبّلها وهو صائم ثمّ لا يفطر ولا يحدث وضوءاً(٣) ، ويعلق الطّبرىّ قائلاً (٤) : « ففى صحّة الخبر فيما ذكرنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الدّلالة الواضحة على أنّ اللّمس فى هذا الموضع لمس الجماع لا جميع معانى اللّمس » .

وبشأن المسّ بمعنى ما دون الجماع ومنه القبلة يقول ابن كثير(٥) : «والقول بوجوب الوضوء من المسّ هو قول الشّافعىّ وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل . قال ناصروه : قد قرىء فى هذه الآية لامستم ولمستم . واللّمس يطلق فى الشّرع على الجسّ باليد . قال تعالى : ﴿ ولو نزّلنا عليك كتابًا فى قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم ﴾ ، أى جسّوه . وقال صلّى اللّه عليه وسلّم لِماعِز حين أقرّ بالزّنا يعرّض له بالرّجوع عن الإقرار : لعلّك قبّلت أو لمست . وفى الحديث الصّحيح : واليد زناها اللّمس . وقالت عائشة رضى اللّه عنها : قلّ يومٌ إلاّ ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يطوف علينا فيقبّل ويلمس » .

إنّ الّذين آمنوا إن كانوا مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منهم من

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٣ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٨ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٦٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٣ .

الغائط أو لامسوا النّساء فلم يجدوا ماءً تيمّموا . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ .

« استنبط كثيرٌ من الفقهاء من هذه الآية أنّه لا يجوز التّيمّم لعادم الماء إلاّ بعد طلب الماء ، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذٍ التّيمّم . وقد ذكروا كيفيّة الطّلب فى كتب الفروع كما هو مقرّرٌ فى موضعه كما فى الصّحيحين من حديث عمران بن حصين أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رأى رجلاً معتزلاً لم يصلّ مع القوم فقال : يا فلان ، ما منعك أن تصلّى مع القوم . ألست برجلٍ مسلم ؟ قال : بلى يا رسول اللّه ، ولكن أصابتنى جنابة ولا ماء. قال : عليك بالصّعيد فإنّه يكفيك »[١] .

والتّيمّم فى اللّغة هو القصد ، تقول العرب : تيمّمك اللّه بحفظه أى قصدك[٢] .

والصّعيد قيل هو كلّ ما صَعِد على وجه الأرض ، فيدخل فيه التّراب والرّمل والشّجر والحجر والنّبات ، وهو قول مالك . وقيل : ما كان من جنس التّراب كالرّمل الزّرنيخ والنّورة . وهذا مذهب أبى حنيفة . وقيل : هو التّراب فقط . وهو قول الشّافعىّ وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجّوا بقوله تعالى : فتصبح صعيداً زلقا . أى ترابًا أملس طيّبا ، وبما ثبت فى صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : فضلنا على النّاس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلّها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء . وفى لفظ : وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء . قالوا : فخصّص

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ .

الطّهوريّة بالتّراب فى مقام الامتنان . فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه[١] .

والطّيّب ههنا قيل الحلال ، وقيل الّذى ليس بنجس[٢] .

وهذه الأمّة مخصوصةٌ بمشروعيّة التّيمّم دون سائر الأمم كما ثبت فى الصّحيحين عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أعطيت خمسًا لم يعطهنّ أحدٌ قبلى . نُصِرْت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا ، فأيُّما رجلٍ من أمّتى أدركته الصّلاة فليصلّ . وفى لفظ : فعنده مسجده وطهوره . وأحلّت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى . وأعطيت الشّفاعة . وكان يُبْعَثُ النّبىّ إلى قومه وبعثت إلى النّاس كافّة[٣] .

وفى القول : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ وصفٌ للتّيمّم . وبهذا يتبيّن أنّ التّيمّم بدلٌ عن الوضوء فى التّطهير به لا أنّه بدلٌ منه فى جميع أعضائه ، بل يكفى مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ولكن اختلف الأئمة فى كيفيّة التّيمّم على أقوال :

أحدها : وهو مذهب الشّافعىّ فى الجديد أنّه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين .

والقول الثّانى : أنّه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفّين بضربتين وهو قول الشّافعىّ فى القديم .

والثّالث : أنّه يكفى مسح الوجه والكفّين بضربةٍ واحدة[٤].

وفى التّذييل : ﴿ إنّ اللّه كان عفوًا غفورا ﴾ تقرّر الآية الكريمة صفتين

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٤ و ٥٠٥ .

للذّات العليّة . العفو ، والمراد بالعفو ترك الذّنب وعدم المؤاخذة عليه . والمراد بالغفران ترك الذّنب وعدم المؤاخذة عليه وستره عن الخلائق يوم القيامة . وهكذا يتبيّن أنّ الغفران عفوٌ وزيادة . فإذا كان العفو يقف عند عدم المؤاخذة على الذّنب فإنّ الغفران يتجاوزه إلى ستره يوم القيامة ، وعدم فضح صاحبه أمام الخلائق ، فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

وهكذا يتبيّن بعض فضل اللّه تعالى على عباده وهو الّذى يريد بهم اليسر ولا يريد العسر ، ومن ذلك الإرشاد إلى التّيمّم ، وبيان كيفيّته ، وعدم المؤاخذة على الذّنوب ، وستر تلك الذّنوب عن الخلائق يوم القيامة . ولله وحده لا شريك له الحمد والمنّة .

(٩)

من صفات أهل الكتاب السيّئة وعقاب الكافرين وثواب المؤمنين

الآيات (٤٤ ـ ٥٧)

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ
ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا

﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

مما نصّت عليه آيات القسم السّابق الأمر بعبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له ، ومجيء كلّ رسول شهيداً على أمّته يوم القيامة ، وفيهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، رسول اللّه تعالى إلى النّاس كافّة ، وتَمنّى الّذين كفروا وعصوا الرّسول لو تسوّى بهم الأرض . ولمّا كان بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم فى مجموعهم من ذلك الفريق الكافر العاصى للرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقد تحدثت آيات هذا القسم عن هؤلاء الكافرين وعقابهم ، كما تحدّثت عن المؤمنين وثوابهم . وإنّ المحور الّذى يدور حوله حديث الآيات الكريمات ، هو التّعجيب من بنى إسرائيل ، لهذا يتكرّر مرّات ثلاثًا القول : « ألم تر » خطابًا للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، تنبيهًا على عجيب أفعال القوم وغريب أقوالهم . إنّ بنى إسرائيل يشترون الضّلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، ويصدّون عن سبيل اللّه تعالى ، ويريدون من المؤمنين أن يتحوّلوا مثلهم كفّارًا ، وهم ألدّ أعداء المؤمنين بنصّ آى الذّكر الحكيم . ومن مظاهر كفرهم أنّهم يحرّفون الكلم فى التّوراة عن صحيح معناه ، ويقولون للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، واسمع لا سمعت لسبق الموت إليك ، ويا أيّها الأحمق المجنون ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ إنّهم يريدون هذه المعانى السّيّئة فى حقّه صلّى اللّه عليه وسلّم ولا يريدون المعانى الحسنة التّى يفيدها أصل الكلام فى حال سلامة القلب وصفاء النّيّة : ﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا ليًا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين ﴾ وبعد إرشادهم إلى القول الصّحيح يُدْعون إلى تصديق القرآن الكريم واتّباع خير الأنام ، وإلاّ كان العذاب أليمًا ، وبخاصّة فى حقّ المشركين مع اللّه تعالى غيره . والعجيب فى أمر كافرى أهل الكتاب أنّهم يزكّون أنفسهم ، والأعجب من ذلك أنّهم يقولون لمشركى مكّة إنّكم أهدى سبيلاً من المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ومن المؤمنين ! إنّ الباعث للقوم على هذا الافتراء إيمانهم بالسّحر وبالشّيطان وبكلّ طاغوتٍ يعبد

من دون اللّه تعالى ويرضى بذلك . وإنّهم استحقّوا اللّعن بافترائهم على اللّه تعالى الكذب كما استحقوه بسبب كفرهم بمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم وقولهم لحن القول له عليه الصّلاة والسّلام . وينفى السّياق أن يكون الباعث لبنى إسرائيل على الكذب هو أنّ لهم فى هذا الكون نصيبًا ، وأنّ محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين سلبوهم شيئًا من هذا النّصيب . ويثبت السّياق فى المقابل حسد بنى إسرائيل للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، لكونه من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام ، وليس كسائر أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام ، ويثبت حسدهم للعرب لكونهم من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام كذلك ، فكأنّه عليه الصّلاة والسّلام ، وكأنّ العرب سلبوا بنى إسرائيل حقّاً لذا هم يحسدونهم بسببه . وبما أنّ محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بِدْعًا من الرّسل ، وبما أنّ العرب ليسوا بِدْعًا من الأمم ، فقد تحدّث السّياق عن نعم اللّه تعالى على إبراهيم عليه السّلام وآله بالنّبوّة والكتاب والسّنّة والملك العظيم . وبما أنّ داء الحسد متأصّلٌ فى نفوس بنى إسرائيل ، فقد بيّن السّياق أنّ هذا الفضل العظيم على إبراهيم عليه السّلام وآله ، قد كفر به بعض بنى إسرائيل ، فمن باب الأولى أن يكفروا بالفضل على محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو ليس من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام . وكان الحديث عن كافرى بنى إسرائيل مهيّئًا للحديث عن الكافرين عمومًا وعذابهم الأليم فى نار جهنّم ، ومهيّئًا كذلك للحديث عن المؤمنين عمومًا وثوابهم ونعيمهم المقيم فى جنّات عدن ، لأنّ الحديث عن المعنى وضدّه من سمات القرآن الكريم المتشابه المثانى .

الآيتان رقم (٤٤ , ٤٥)

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

تخاطب أولى الآيتين الكريمتين المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتسأله ، ألم تر أيّها الرّسول الكريم بقلبك الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ، ألم تعلم أيها النّبىّ العظيم ، وتبصر بنور بصيرتك ، وتنظر إلى بنى إسرائيل المعاصرين لك ، السّاكنين غير بعيدٍ منك ، الّذين أُعْطوا حظّاً من التّوراة ، يشترون الضّلالة بالهدى ، والعذابَ بالمغفرة ، ويريدون أن تضلّوا مثلهم السّبيل ، وتخطئوا الطّريق القويم ؟ وبطبيعة الحال لم يخف على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم حقيقة موقف بنى إسرائيل منه صلّى الله عليه وسلّم ، ومن دين الإسلام ، ومن المسلمين . إنّه العداوة الّتى لا مبرّر لها ولا سبب وراءها سوى فضل الله تعالى على خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بنعمة الرّسالة ، وعلى العرب الأمّيّين الّذين أكرمهم الله تعالى باصطفاء محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم منهم .

وهذه العداوة المفهومة ضمنًا صرّحت بها الآية الكريمة التّالية ، الّتى تخاطب المسلمين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، والّتى تبيّن لهم بصريح اللّفظ أنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بأعدائهم ، فعليهم أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، وقد جاء فى سورة المائدة(١) قوله تعالى : ﴿ لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا اليهود والّذين أشركوا ﴾ وفى التّذييل : ﴿وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيرا ﴾ تقول الآية الكريمة للمؤمنين : كفاكم وحسبكم بالله ربّكم وليّاً (٢) يلى أموركم ، وراعيًا يرعى مصالحكم ، وحافظًا يحفظ

(١) الآية ٨٢ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٥ .

حقوقكم ، وكفاكم وحسبكم باللّه ربكم ناصراً يثبّت أقدامكم ، ويفرغ الصّبر عليكم ، وينصركم على الكافرين أعداء اللّه تعالى وأعدائكم .

ونستطيع أن نفهم من استعمال القول : ﴿ نصيبًا من الكتاب ﴾ أنّ أهل الكتاب هم الّذين بخسوا نفوسهم حقوقها ، ونقصوها حظوظها ، حينما قصّروا فى حقّ ذلك الحظّ من الكتاب ، وفرّطوا فى جنب اللّه تعالى ، فاللّوم يقع عليهم وحدهم ، والمعروف أنّ الآية الكريمة التّالية تؤكّد هذه المعانى .

ولا يخفى التّرتيب اللّطيف للفظتى « وليّا » و « نصيرا » لأنّ عمليّة الولاية قاعدةٌ ضروريّةٌ للنّصر ، ومقدّمةٌ منطقيّةٌ بين يديه . والآية التّالية تبيّن إحدى الكيفيّات الّتى بخس اليهود أنفسهم حظوظها بواسطتها فإلى

الآية رقم (٤٦)

قال تعالى :

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

أشارت الآية الكريمة قبل السّابقة إلى الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب . والمراد بأهل الكتاب اليهود والنّصارى . ومع اشتراك الفريقين فى اشتراء الضّلالة بالهدى فإنّ اليهود يتقدّمون النّصارى فى هذا الشّأن لتقدّمهم على النّصارى فى عداوة المسلمين ، ولأنّهم أعطوا الدّليل العمليّ على هذه العداوة فى وقتٍ مبكّر ، باعتبارهم بعض سكّان منطقة المدينة المنّورة حين نزول القرآن الكريم . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تنطق بذلك المفهوم وتذكر الّذين هادوا ، وهم اليهود ، بصريح اللّفظ .

ويصحّ أن يكون اسم اليهود مأخوذًا من هاد إذا تاب ، ومن ذلك قوله

تعالى فى سورة الأعراف[١] : ﴿ إنّا هدنا إليك ﴾ والمعنى : إنّا تبنا إليك ، وقد جاء ذلك على لسان موسى عليه السّلام والسّبعين رجلاً من قومه حينما ذهبوا لميقات ربّهم من أجل التّوبة لعبادة قومهم العجل فى أثناء ذهاب موسى عليه السّلام لميقات ربهّ من أجل تلقّى التّوراة . والهَوْد : التّوبة . وكان «يهود» اسم مدح ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح[٢] ويصحّ أن يكون من يهود بن يعقوب ، وغيّره التّعريب[٣] وأصل الاسم يهوذا بالذّال المعجمة[٤] ونحن فى حقيقة الأمر أشدّ ميلاً إلى كون اليهود قد نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ، وهو إسرائيل ، بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام . وإنّ الباعث لنا على هذا الميل أنّ القول فى سورة الأعراف : ﴿ إنّا هدنا إليك ﴾ الّذى يقال إنّ اسم يهود مأخوذ منه ، إنّما هو قولٌ عربىّ نظنّ أنّه بسبب الاشتراك اللّغوىّ وافق مثل هذا القول : ﴿ من الّذين هادوا ﴾ وعليه فإذا كان معنى القول : ﴿ إنّا هدنا إليك ﴾ إنّا تبنا إليك ، فإنّ معنى القول : ﴿ من الّذين هادوا ﴾ من الّذين قالوا إنّا يهود أو هود ، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السّلام ، وأحد إخوة يوسف عليه السّلام . واللّه أعلم .

ويلفت النّظر بشأن القول : ﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ استعمال حرف الجرّ « عن » وليس حرف الجرّ « من » ويبدو ـ واللّه تعالى أعلم ـ أنّ الفرق كبيرٌ فى الاستعمال بين الحرفين فى مثل هذه المناسبة ، وربّما بدا الفرق جليّاً بين المعنيين حينما نستعمل كلاً من الحرفين فى جملة مستقلّة . ويبدو ـ واللّه تعالى أعلم ـ أنّ القول : حرّفت هذا الكلام من

---

(١) الآية ١٥٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « هود » ٥٤٦ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٨٧ .

(٤) انظر مثلاً البحر المحيط ٥/ ٢٨٢ .

موضعه ، يفيد أنّ الكلام فى موضعه أساسًا وأنّى زحزحته عن ذلك الموضع الّذى كان مستقراً فيه ومتمكّنًا منه . أمّا القول : حرّفت هذا الكلام عن موضعه ، فإنّه يصحّ أن يفيد أنّ الكلام كان متجهًا إلى موضعه ، وأنّى صرفته عنه وانحرفت به عن وجهه وحوّلته عن صحيح معناه .

ولمّا كان الكلم جماع كلمة [١] وكان التّحريف بمعنى التّبديل والتّغيير[٢] فإنّا يصحّ أن نفهم القول : ﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ على نحوٍ قريبٍ من هذا القول : من اليهود فريقٌ يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويصرفون الكلام عن وجهه ، ويفسّرونه بغير معناه ، ويتأوّلونه وفق أهوائهم وأنفسهم الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم .

والجمهور يرى أنّ المراد بالكلم كلم التّوراة[٣] وإنّ من كلم التّوراة الّذى حرّفوه نعت المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، والمعروف أنّ كلاً من التّوراة والإنجيل يتضمّن نعت المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم . وإنّما كان منهم هذا التّحريف للكلم عن مواضعه ، بباعث الحسد للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم الّذى كان من العرب وليس من بنى إسرائيل، وللعرب باعتبارهم مادّة الرّسالة الأولى ، والمؤتمنين ابتداءً على أمانة نشرها فى الخافقين . لقد كان بنو إسرائيل يتمنّون أن يكون النّبىّ الخاتم الّذى أظلّ زمانه ، ودنا وقت بعثته ، من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، أى من ذرّيّة يعقوب ، وهو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام ، وليس من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام ، أى ليس من العرب . ولمّا بُعِث المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم من العرب كفروا به عليه الصّلاة والسّلام ونبذوا التّوراة الّتى فيها نعت المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم نبذ النّواة

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٥ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٥ .

(٣) البحر المحيط ٣/ ٢٦٢ .

وراءهم ظهريا . وإلى ذلك أشار قوله تعالى[١] : ﴿ ولمّا جاءهم كتابٌ من عند اللّه مصدّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللّه على الكافرين ﴾ والمعنى : ولمّا جاء بنى إسرائيل كتابٌ من عند اللّه تعالى وهو القرآن الكريم ، مصدّقٌ لما معهم من التّوراة ، وكانوا من قبل مجيء القرآن الكريم وبعثة خير الأنام يستنصرون على الّذين كفروا ويقولون : اللّهمّ انصرنا عليهم بالنّبىّ المبعوث آخر الزّمان ، فلمّا جاءهم ما عرفوا من الحقّ كفروا به فلعنة اللّه على الكافرين . وأشار قوله تعالى[٢] : ﴿ ولمّا جاءهم رسولٌ من عند اللّه مصدّقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب اللّه وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ﴾ والمعنى أنّ فريقًا من بنى إسرائيل نبذ كتاب اللّه تعالى وهو التّوراة وراء ظهورهم ، وحرّفوا كلام اللّه تعالى عن مواضعه ، وصرفوا معاني آيات اللّه تعالى عن وجوهها ، وركبو رءوسهم فى التّكذيب والكفر إلى أبعد مدى .

وإذا كان لدى هذا الفريق الجراءة على كتاب اللّه تعالى الموحى به إلى رسول اللّه تعالى إليهم ، موسى عليه السّلام ، فهل يُنْتَظَرُ منه غير هذا الموقف من القرآن الكريم والرّسول العظيم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ إنّ هذا الفريق انساق فى حقّ القرآن الكريم والرّسول العظيم إلى آخر الشّوط مع صدره العليل ، وفكره الكليل ، وفهمه السّقيم ، ونفسه المعوجّة ، وفطرته الملتوية . إنّهم بعد أن أنهوا حسابهم مع التّوراة الّتى أوحاها اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام ، وصرفوا معاني آياتها فى نعت المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم عن وجوهها ، يتحوّلون إلى القرآن الكريم والرّسول العظيم . قال تعالى:

﴿ من الّذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين ﴾ .

ومعنى القول : سمعنا وعصينا : سمعنا يا محمّد قولك وعصينا

(١) سورة البقرة ٨٩ .

(٢) سورة البقرة ١٠١ .